نظرية القياس الأصولي

منهج تجريبي إسلامي

دراسة مقارنة

الدكتور محمد سليمان داود
كلية التربية - جامعة طنطا

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

تتضح أهمية هذا الموضوع من أنه بحث فى المنهج عند الاصـــوليين المسلمين من الفقهاء والمتكلمين ، فالمنهج هو الوسيلة الى العلم ، فالعلم يبدأ بدراسة الحقائق الجزئية ، غير أن هذه الحقائق الجـــزئية لا تكون بذاتها علما ، لأن العلم لا يكون الا اذا كشفنا عن القوانين العامة التى تكون هذه الجزئيات تطبيقا لها ، وأن أهمية الحقيقة الجـــزئية هى أنها مثل يدلنا على قانون من القوانين الكونية[1] .

ولقد ظهر فى الفكر اليونانى القديم منهجـــان للتفكير ، أحـــدهما : القياس الأرسطى وأما الثانى : فهى الاقيسة الرواقيـــة ، واعتبر القياس الارسطى لفترة تقرب من عشرين قرنا من الزمان منهج التفكير والبحث والكشف فى العلوم الى أن ظهرت المناهج التجريبية الحديثة عند فرنسيس بيكون وجون استيوارت مل على أنقاض القياس الارســـطى الذى تداعى أمام نقد المفكرين المحدثين .

ولم تسلم الاقيسة الرواقية والمناهج التجريبية الحديثة من النقد فى بعض اتجاهاتها التى لا تتفق ووجهة نظر العلم الحديث .

وأما فى دائرة الفكر الاسلامى فان مؤرخى الفلسفة الاوربيين ذهبوا الى أن الفلاسفة المسلمين لم يأتوا بجديد فى تاريخ الفكر الفلسفى ، ولقد وضع دى بور كتابا فى « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » انتهى فيه الى أن

---

(١) دكتور زكى نجيب محمود المنطق الوضعى جـ٢ ص ١٤٤ .

الفلسفة الاسلامية ظلت طوال حياتها فلسفة انتخابية ، قوامها الاقتباس مما ترجم من كتب الاغريق ، وأنها استمداد من معارف السابقين لا ابتكارا، ولم تتميز عن الفلسفة التى سبقتها بافتتاح أبحاث جديدة ، ولا هى انفردت بجديد فيما حاولته من معالجة المسائل القديمة ، ولم يجد لها فى عالم الفكر خطوات جديدة تستحق أن تسجل لها ، وتتبع دى بور الفلاسفة المسلمين، وأخذ فى تجريحهم ، فقال عن اخوان الصفا بأنهم أنفسهم يعترفون بما فى مذهبهم من تلفيق واقتباس من مختلف المذاهب • وأن الكندى (٢٥٢ هـ) لم يكن عبقريا بوجه من الوجوه وتبوأ أرسطو مكانا كبيرا فى ثبت الكتب التى صنفها ، ولم يطلق على الفارابى (٣٣٩ هـ) المعلم الثانى الا لاهتمامه بنقل وشرح مؤلفات أرسطو وأنه أول من أحصى تلك المؤلفات ، ورتبها على صورة لم تتغير فى جملتها ، وصارت تفسر وتشرح على طريقته وان ابن مسكويه (٤٢١ هـ) ترك مذهبا فلسفيا فى الاخلاق لا يزال له شأن فى الشرق الى يومنا ، وهو مزيج من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ومن أحكام الشريعة الاسلامية ، غير أن نزعة أرسطو غالبة عليه ، وان منطق ابن سينا (٤٢٨ هـ) يرد الى منطق الفارابى ، وان من الخطأ الكبير الاعتقاد بأن ابن سينا كان أعلى كعبا من الفارابى فى تقرير مذهب أرسطاطاليسى خالص • وان ابن باجه (٥٣٣ هـ) لا يختلف عن ابن سينا فى كتبه المنطقية • وان ابن رشد (٥٩٥ هـ) حصر جهده فى مذهب أرسطو فهو يلخص مذهبه ، ويشرحه فى ايجاز تارة ، وباطناب تارة أخرى ، وانه يستحق أن يسمى « الشارح » وهو اللقب الذى أطلقه عليه دانتى ، وأنه يرى أن أرسطو هو الانسان الاكمل ، والمفكر الاعظم الذى وصل الى الحق الذى لا يشوبه باطل ، وأنه عاش معتقدا أن مذهب أرسطو ، اذا فهم على حقيقته ، لم يتعارض مع أسمى معرفة يستطيع أن يبلغها انسان ، بل كان يرى أن الانسانية فى

تطورها بلغت فى شخص أرسطو درجة عالية لا يمكن أن يسمو عليها أحد، وأنه متعصب لمنطق أرسطو ، غيرى أنه لا سعادة لاحد بدونه ؛ ويأسف لأن سقراط وأفلاطون لم يكونا على علم به ، وأن سعادة الانسان تكون على قدر مرتبته فى معرفة المنطق •

ولا يمكن انكار تلك الاتجاهات ، فلا يخرج واحد من الفلاسفة المسلمين ، فى مناهج البحث ، عن دائرة الفكر اليونانى ، فهو اما أن يكون شارحا ، أو أن يكون ناقلا ، أو أن يكون تابعا ، ولذا لا يمكن اعتبارهم المثلين الحقيقيين للفكر الاسلامى الخالص •

ومن هنا وجه الدكتور على سامى النشار نظر الباحثين فى كتابه « تاريخ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام » الى جانب آخر من جوانب الفكر الاسلامى ، تتضح فيه أصالة المفكرين المسلمين ، وهذا الجانب يتمثل فى الفقهاء والمتكلمين ، وحدد موضوع الجدة والاصالة فى هذا الفكر بنظرية « القياس الاصولى » •

وسيتبين من هذا البحث : أن الفقهاء والمتكلمين هم أول من بنى منهجا تجريبيا متكاملا ، يتفق ووجهة نظر العلم الحديث ، وأنهم أول من هدم القياس الارسطى ، وأن الفلاسفة الاوربيين المحدثين لم يأتوا بجديد ، لا فى المنهج التجريبى الحديث ، ولا فى هدمهم القياس الارسطى غير ما كشفه الفقهاء والمتكلمون •

وقد قسمت هذا البحث الى ثلاثة فصول :

*** الفصل الاول :**

نظرية القياس الاصولى :

عرضت فيه نظرية القياس الاصولى ، وتتبعت هذه النظرية فى القرآن الكريم ، وأحاديث النبى ، وعند الصحابة ، وعند الفقهاء والمتكلمين،

وحاولت بقدر ما أستطيع الرجوع الى جميع مصادر هذا القياس ، وناقشت كل ما يتعلق به من مسائل فى : تعريفاته ، وأركانه ، وضروبه ، وشروطه ، أو مسالك العلة ، أو قوادحها ، كما عرضت لوجهات النظر المتباينة فى كل مسألة من مسائله •

وسيتبين أن هذه النظرية تمثل أصالة الفكر الاسلامى الخالص •

*** الفصل الثانى :**

موقف الفقهاء والمتكلمين من القياس المنطقى والقياس الاصولى

ناقشت موقف ثلاثة من الفقهاء المتكلمين :

١ ــ أبو محمد على بن أحمد بن حزم (٤٥٦ هـ) •

٢ ــ أبو حامد الغزالى (٥٠٥ هـ) •

٣ــ تقى الدين بن تيمية (٧٢٨ هـ) •

فبينت أن الاول قد أخذ بالقياس المنطقى دون الاصولى ،وأن الثانى أخذ بالقياسين المنطقى والاصولى وأن الثالث أخذ بالقياس الاصولى دون القياس المنطقى ، وتعرضت للدوافع عند كل منهما فى اتخاذ موقفه •

وسيتضح أن ابن تيمية يتخذ الموقف الشائع عند الفقهاء والمتكلمين •

*** الفصل الثالث :**

نظرية القياس الاصولى والنظريات المنطقية والتجريبية فى الفكر الاوربى :

عقدت عدة مقارنات بين نظرية القياس الاصولى والنظريات المنطقية والتجريبية سواء عند اليونان فى الاقيسة الارسطية أو الاقيسة الرواقية ، أو عند الفلاسفة المحدثين أمثال فرنسيس بيكون ، وجون استيوارت مل ،

لبيان أوجه التشابه ، أو التباين ، أو التمايز بينها ، وأى من هذه النظريات يمكن أن يتفق ووجهة نظر العلم الحديث •

كما عرضت لنظرية الاحتمال عند الامام الشافعى (٢٠٤ هـ) وعند ديفيد هيوم (١٧٧٦م) •

وقد بينت أن « نظرية القياس الاصولى » بما يشيع فى أحكامها من « ظن » و « احتمال » هى التى تتفق ووجهة نظر العلم الحديث •

وبودى أن يترجم هذا البحث الى لغات العالم ، ليعلم المفكرون فى هذه الدنيا : أن الاصوليين المسلمين من الفقهاء والمتكلمين بكشفهم عن « نظرية القياس الاصولى » قد كشفوا عن « المنهج التجريبى الحديث » الذى يفتخر بكشفه الاوربيون المحدثون ، فليس المنهج التجريبى الحديث الا منهجا فى البحث عن «العلل » فى الكون ، وان عبقرية العقلية الاسلامية هى فى كشف « نظرية القياس الاصولى » وهى أيضا منهج فى البحث عن « العلل » فى الشريعة ، ففى « مسالك العلة » اكتشفوا مناهج الى الوصول الى العلة هى : المناسبة ، والشبه ، والطرد ، والدوران ، والسبر والتقسيم، وتنقيح المناط • ولا يخرج المنهج التجريبى الاوربى عن تلك المناهج • وأنهم أول من هدم القياس المنطقى فى تاريخ الانسانية •

وسنرى أن مناهج الاصوليين المسلمين قد انتقلت الى أوربا المسيحية عن طريق صقلية والاندلس •

دكتور

محمد سليمان داود

الفصـــل الاول

نظـــرية القيـــاس الأصـــــولى

ظهر « القياس الاصولى » فى فجر الاسلام ، فقـــد كشفت أبحـــاث الفقهاء المتكلمين عن وجود ضروب منه فى آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبى ﷺ ، وفتوى بعض الصحابة ، واشتغل به الفقهاء والمتكلمون ، وأنكره أصحاب المذهب الظاهرى كأبى داود بن على الاصبهانى (٢٧٠ هـ) ، وابنه محمد (٢٩٧ هـ) ، وابن حزم (٤٥٦ هـ) ، كما أنكره أيضا أصحاب المذهب الشيعى كالامام جعفـــر الصـــادق (١٤٨ هـ) ، ولم يهتم به الفلاســـفة المسلمون ، كما أنهم لم يعارضوه .

ونتساءل : هل من الممكن أن نحدد واضعا للقياس الاصولى كأرسطو واضع المنطق ؟

لا يمكن أن نحدد بدقة واضعا للقياس الاصولى ، ففى القرآن نوعان من الآيات تتعلق بالاحكام فى الشريعة الاسلامية :

احداهما : آيات تعبدية تحكمية ليس لها تعليل ، واتخـــذ منها نفاة القياس دليلا على عدم وجود القياس فى الشريعة ، ويحـــكى الغـــزالى (٥٠٥ هـ) وجهة نظرهم فيقول (كيف يتصرف بالقياس فى شرع مبناه على التحكم والتعبد ، والفرق بين المتماثلات والجمع بين المتفرقات[1] ؟) ويقول أبو داود الاصبهانى وأصحابه (القصد بالقياس طلب الحكم فيما لا نص

---

(١) الغزالى المستصفى جـ٢ ص ٦٧ .